المحاضرة الثالثة:

مدرسة بالو التوPalo Alto

لا يمكن ألاّ نتواصل

on ne peut pas ne pas communiquer

تُعتبر مدرسة **بالو ألتو** واحدة من الروافد الرئيسية للعالج الأسري، حيث قدمت نظريات وتقنيات جديدة لفهم وعلاج الاضطرابات النفسية في سياق العائلة. وهي بمثابة حركة فكرية طبقت نظرية النظم والتحكّم الآلي على العلاقات البشرية، مما أدى إلى ظهور مفاهيم جديدة لفهم التواصل الاسري.

1-نشأة المدرسة:

مدرسة بالو ألتو **Palo Alto** نسبة إلى مدينة صغيرة موجودة بكاليفورنيا، وقد ركزت هذه المدرسة على الفكرة التي مؤداها أنّ معنى تواصل ما يتوقف أساسا على السياق المنجز داخله، حيث أكّد العلماء المنتمون إلى هذه المدرسة (باتسون، فاتسلافيك، جاكسون،...) على أهمية السياق من خلال استخلاص مفهوم التأطير استنادا إلى السياق ذاته. وثمة قاعدة تنسب إلى بالو ألتو تقضي بأنّه **"لا يمكن أن لا نتواصل"** ومفادها أنّ كل جزئية في حياتنا تعتبر عنصرا تواصليا على اعتبار أنّ لكل سلوك اجتماعي قيمة تواصلية. وتمثل مدرسة **بالو ألتو** تيارا للبحث متعدد التخصصات، ظهر في الخمسينيات، يعنى بإشكالية التواصل وتطبيقاتها على الباثولوجيا العقلية، ولعلّ الذي ألّف بين اختلافات أعضاء هذه المدرسة هو النزوع نحو المسعى النسقي Systémique كمرجع مشترك، وتتكون هذه المدرسة من فريقين: يضم الفريق الأوّل Gegory Batisson الذي بفضل أبحاثه اعتبر الأب الروحي لهذه المدرسة، أمّا الفريق الثاني فينشطه السيكولوجي Done.Jackson الذي أسس سنة 1958 MRI المؤسسة العقلية للبحث Mental Recerch Institue ، التي تميل نحو العلاج النفسي.

انطلق **باتسون** وفريقه من تساؤل جوهري حول الأصول المرضية لبعض الاضطرابات النفسية خاصة الفصام، والذي يتمثل في: هل يمكن أن يكون العرض النفسي للفرد ليس فشلا ذاتيا بل نتيجة لخلل في أنماط التفاعل والتواصل داخل نسق الأسرة؟

2-أهم روادها:

***غريغوري باتسون Gregory Batisson** 1904-1980: يعدّ أحد أهم المسسين والملهمين للمدرسة والأب الروحي لها، وهو عالم أنثروبولوجي وفيلسوف ، كان له الدور الأكبر في إدخال نظرية النظم إلى

علم النفس والعلاج الأسري، حيث اعتبر أن العقل والاتصال هما ظواهر نظامية مترابطة، كما شارك في وضع نظرية" الرابط المزدوج" التي تشرح كيفية نشأة الاضطرابات النفسية (خاصة الفصام) نتيجة لتعرض الفرد لرسائل متناقضة داخل نظامه الأسري.

* **بول فاتسلافيك Paul Watzlawick** 1921-2007: وهو طبيب نفسي وعالم اتصال ، ويعتبر المنظّر الأبرز في المدرسة، اشتهر بوضع مسلمات التواصل الخمسة في كتابه "براغماتية التواصل الإنساني" وأشهرها: لا يمكن ألا نتواصل و كل تواصل له جانبان: المحتوى والعلاقة. ركّز عمل على كيف أن المشكلات ليست داخلية أو فردية، بل هي نتاج التفاعلات والانماط الاتصالية بين الأفراد.

* **دون دي جاكسونDon D Jackson** 1920-1968**:** وهو طبيب نفسي، والمؤسس الفعلي لمعهد البحوث العقلية MRI. كان له دور في محوري تطوير العلاج الأسري النظامي، حيث ركّز على فكرة أنّ الأسرة هي وحدة العلاج، وأنّ الأعراض المرضية للفرد هي تعبير عن خلل في توازن النظام الأسري، كما أدخل مفهوم "التماثل الأسري" أي ميل الأسرة إلى مقاومة التغيير والحفاظ على وضعها الراهن حتى لو كان غير صحّي.

***فيرجينيا ساتير Virginia Satir** 1916-1988: وهي معالجة نفسية اجتماعية، كانت من أكثر المعالجين الأسريين تأثيرا وشهرة. ركّزت على الجانب الإنساني والعاطفي في العلاج، وأكّدت على أهمية التواصل الواضح والصادق وتقدير الذات داخل الأسرة، كما طوّرت أساليب علاجية تركز على التجارب العاطفية والنمو الشخصي، واشتهرت بتحليلها لأنماط التواصل غير الفعّالة داخل الأسرة.

3- المقاربة النسقية للتواصل:(المسلمات الخمسة)

في عام 1967 نشرت مجموعة من معهد الأبحاث العقلية MRI خلاصة خبرتهم في كتاب " براغماتيات الاتصال الإنساني" وهو يمثل مجموعة من نظرية الاتصال ونظرية الأنساق والأمراض النفسية (السيكوبالوجية) مع لمسات من الفلسفة والأدب والرياضيات. ومن بين الاسهامات الهامة التي قدّمها كتاب براغماتيات الاتصال الإنساني خمس مسلمات Axiomes وهي:

أ- إنّ التواصل ظاهرة تفاعلية، حيث أنّ الوحدة الأساسية لهذه الظاهرة لم تعد هي الفرد(كما كانت تقدّمها السيكولوجيا لتقليدية)، بل هي العلاقة التي تنشأ بين الأفراد(العائلة، الفريق، التنظيم...)، والتي تعدّ استجابة لتدخّل الآخر لكنّها لا تشكّل من جهتها مثيرا سيرتدّ له الآخر، لأنّ التواصل سيرورة دائرية تحدث في كل رسالة عملية ارتجاع من طرف المتلقي.

المقصود ببراغماتيات التواصل الإنساني هي دراسة الأثر العملي لاستخدام اللغة، وكيف يؤثر السياق والهدف وعلاقة المتحدثين على انتاج وفهم الرسائل اللغوية. مثال لتوضيح البراغماتيات في التواصل:عندما يقول شخص ما "الجو بارد جدا"المعنى الحرفي هو وصف درجة الحرارة المنخفضة، اما المعنى البراغماتي أي العملي قد يكون القصد الفعلي هو طلب من المستمع أن يغلق النافذة أو يزيد التدفئة حتى ولو لم يستخدم المتحدث كلمة أغلق النافذة.

ب- لا يُختزل التواصل في الرسائل اللفظية فحسب، على اعتبار أنّ لكل سلوك اجتماعي قيمة تواصلية. ففي حالة التفاعل **"لا يمكن أن لا نتواصل"**: إذ أنّ الايماءات، أو الحركات أو المواقف، بل أيضا السلوكات تنقل رسالة ما، فالصمت يمكن أن يدل على الخجل، أو التحفظ، أو القمع أو الامتعاض.

ج- يتحدد التواصل من خلال السياق الذي يؤطره، ويعنى هذا السياق بالعلاقات التي تربط بين الأشخاص الذين يتواصلون (علاقات بين مجهولين، وبين الزملاء في العمل، وبين الآباء وأبنائهم)، في الإطار الذي

يتم فيه التفاعل، وكذا المقام الذي يجعل المتعارضين في علاقة وبذلك يغدو السياق إطارا رمزيا عاملا للمعايير والقواعد والنماذج وطقوس التفاعل.

د- تقتضي كل رسالة مستويين من الدلالة، فهي لا تنقل المحتوى الاخباري فحسب(وقائع، آراء، مشاعر أو تجارب المتكلم)، بل تعبّر أيضا عن شيء ما حول العلاقة التي تربط المتخاطبين فعندما يقول رجل لامرأة أنت ترتدين فستانا جميلا، فهو بذلك ينقل لها رأيه وبموازاة ذلك يمكن أن تنسج علاقة إعجاب بينهما.

تبنى العلاقة بين المتحاورين تتأسس حسب نموذجين كبيرين وهما النموذج التماثلي Modèle symetrique والنموذج التكاملي Modèle complémentaire. حيث أنّ النموذج الأوّل يحدد العلاقة التعادليّة حيث تكون سلوكات المتحاورين انعكاسية(en miroir)، أمّا في النموذج الثاني يعتمد المتحاورون سلوكات متباينة تحاول التوفيق بين الطرفين، ويمكن للعلاقة التكاملية أن تكون تراتبية بمعنى أن تأخذ مكانة عليا أو مكانة دنيا (رب عمل، عامل).

ه- والفرضية الأخيرة الأساسية التي تنطلق منها هذه المدرسة هي أنّ معظم أشكال الأمراض العقلية، يمكن أن تعود إلى اضطرابات أو اختلال في التواصل، حيث أنّ الاضطرابات العلائقية هي التي يمكن أن تشرح الأعراض المرضية عند الفرد، وأنّه إذا أردنا أن نتدخّل لعلاجها يجب أن نغيّر السياق العلائقي الذي أحدثها.

4-مفهوم الرابط المزدوج:

يعدّ هذا المفهوم من أهمّ المفاهيم التي جاءت بها مدرسة بالو ألتو، مكنت من فهم حالة انفصام الشخصية بمعزل عن التصور الفرويدي. في عام **1956** نشر **باتسون** وزملاؤه مقاله الهام في تفسير الفصام، والذي قدّم فيه مفهوم الرابط المزدوج Double contrainte، والذي اعتبر أنّ له مكونات ضرورية تتمثل في:

1-شخصان أو أكثر(بمعنى يتطلب الموقف وجود شخص مُرسِل-غالبا سلطة أو شخص مهم عاطفيا مثل الأم أو الأب- وشخص مُتلَقٍ "الضحية"، لا يمكن لشخص أن يضع نفسه في رباط مزدوج بمعزل عن الآخرين).

2-خبرة متكررة (بمعنى لا يحدث الرابط المزدوج نتيجة حادثة واحدة عابرة، بل هو نمط اتصال مزمن ومتكرر تعرّض له الضحية باستمرار، هذا التكرار هو ما يجعل الضحية يتعلّم إدراك العالم وفق هذا النمط المتناقض ويفقد القدرة على التمييز بين الرسائل).

3- توجيه أوّلي سلبي(هو رسالة واضحة ومباشرة تخبر الضحية بما يجب عليه ألا يفعله، وعادة ما تكون عقوبة مخالفة هذا التوجيه إشارة إلى خطر على البقاء أو الحب مثال: إذا لم تكن طفلا محبا سأعاقبك-رسالة لفظية-).

4- توجيه ثانوي سلبي يتعارض مع التوجيه الأوّلي على مستوى أكثر تجريد(هذا هو قلب التناقض. إنه رسالة غير لفظية أو ضمنية –على مستوى النبرة، لغة الجسد، الإيماءات- تتعارض مع الرسالة اللفظية الأوّلية، يتم تمريرها غالبا عبر القنوات العاطفية والتعبيرية. مثال: تقول الأم لطفلها: "أنا أحبّك، تعالى واحتضني"-التوجيه الأوّلي- ولكن في الوقت نفسه تتصلب عضلاتها وتبتعد قليلا بوجهها عندما يقترب- التوجيه الثانوي غير اللفظي- النتيجة يقع الطفل في مأزق: إذا استجاب للحب-الأوّلي-سيرفض ، وإذا استجاب للرفض –الثانوي- يعاقب على عدم إظهار الحب).

5- توجيه سلبي من الدرجة الثالثة يحظر على الضحية المغادرة أو الابتعاد عن المجال(هو أمر يمنع الضحية من الهروب أو التعليق أو إنهاء الموقف، هذا التوجيه يضمن عدم قدرة الضحية على تجاوز التناقض أو

DJABALLAH

الإشارة إليه أو الهروب من الموقف المربك. مثال: "أنت تعلم أنني أمك/أبوك وأنت بحاجة إليّ ".أو: "لا تفكّر حتى في المغادرة لأنك ستندم". هذا يحافظ على التبعية للطرف المرسِل).

6- تصبح المجموعة الكاملة غير ضرورية عندما يتعلّم الضحية إدراك عالمه في أنماط الرابط المزدوج (بعد التعرّض المتكرر لهذا النمط، تتشكّل-عادة- لدى الضحية حتى لو لم يعد المرسِل يرسل جميع التوجيهات الستة صراحة، فإنّ الضحية يستبق التناقضات ويتوقعها ويستمر في رؤية العالم والتصرّف فيه كما لو كان في رابط مزدوج دائم، هنا يصبح الرابط متأصلا في الإدراك ويكون أكثر ضررا).

إذن، يعتبر الرابط المزدوج والذي افترضه **باتسون** وزملاؤه، أحد صور الاتصال الخاطئ في الأسرة، حيث يفترض **باتسون** وزملاؤه أنّ الطفل في الأسرة مضطربة الاتصال يتعرض لرسائل متناقضة من والديه، والنموذج النمطي للمعاملة التي تخلق الرابط المزدوج هو أن يتلقى الطفل أمرين متعارضين. فيؤمر بأن يفعل شيئا ثم يؤمر بطريقة أخرى أن لا يفعل نفس الشيء، فالأم(وهي الوالد الأكثر احتمالا في أن توقع طفلها في هذا الموقف) قد تطلب من ابنها مطلبين كالآتي:

الأوّل: مطلب عاطفي أو مطلب غير صريح وغير لفظي، وإنما هي رسالة موجهة إليه من خلال سلوكها العاطفي نحوه، وفحوى هذا المطلب أن يبقى ابنًا مطيعا ضعيفا مرتبطا بها وهو مطلب غير لفظي وغير مباشر، ولكنه قوي وملح.

الثاني: مطلب لفظي وصريح ومباشر ترسله الأم إلى ابنها عن طريق الأوامر اللفظية المباشرة بأن يكون شخصا ناضجا مستقلا متحملا للمسؤولية غير خاضع لأحد.

وتتميّز الأسرة التي تخلق الرابط المزدوج حسب **باتسون** وزملاؤه بأنّ الاتصالات فيها تحدث طبقا للعلاقات التي تحكمها البنية الآتية:

الأم: يثير وجود الطفل قلقها ومشاعرها السلبية نحوه، ولذا فهي تسحب عاطفتها نحوه خاصة عندما يستجيب لها كأم محبّة. وهذه المشاعر السلبية غير مقبولة لديها، ولا تستطيع أن تفصح عنها بل تتنكّر لها وتعمد إلى تغطيتها بالفصاح عن سلوك صريح ومبالغ فيه بالحب نحو الطفل. وعندما تحس الأم بالعاطفة والمشاعر الحميمة نحو طفلها فإنها تشعر بالقلق والتهديد مرّة أخرى، ومن هنا تجد نفسها مدفوعة مرة أخرى للانسحاب بعيدا عن الطفل ولكنها لا ترضى عن هذا السلوك وتعمد إلى إنكاره، بل وتضطر إلى إظهار العاطفة إزاء الطفل مرّة أخرى وهكذا يظل الطفل عرضة لاقتراب الأم وابتعادها، مما يوقعه في حيرة شديدة من أمره.

الأب: غالبا ما يكون ضعيفا وليس له حضور فعلي قوي ومؤثر في المواقف الهامة في تنشئة الطفل، وعدم وجود الأب القوي المستبصر الذي يستطيع دعم الطفل في مواجهة تناقضات الأم وتذبذبها، يسهم في خلق الرابط المزدوج.

الطفل: وهو الضحية، فعليه أن يحدد موقفه من الأم ومن عاطفتها فهو إن أدرك سلوكه باعتباره يعبّر عن عاطفة صادقة، واستجاب لها على هذا الأساس أثار قلقها المكبوت وبالتالي رغبتها في الانسحاب. أمّا إذا أدرك سلوكها كعاطفة مثارة ورد فعل لمشاعر دفينة متناقضة، أي أنّ مشاعرها ليست مشاعر عاطفية أصيلة أو أنّها عاطفة مشروطة فإنه يبتعد عنها. وعندما يفعل ذلك تدرك الأم سلوك الطفل كرسالة إليها بأنها لم تعد أمًّا محبوبة كبقية الأمهات، فتفكر في لوم الطفل وحرمانه كعقاب له على هذا الموقف الجاحد. ومن ملامح موقف الرابط المزدوج الرئيسية أنّ الطفل فيه يعاقب في كل الحالات، فإذا ما ميّز بدقة مشاعر الأم وطبيعة دوافعها فإنه سيعاقب على الجحود والنكران من قبل الأم، وإذا لم يميّز مشاعرها بدقة واستجاب لعاطفتها بعاطفة مماثلة فيعاقب لأنّه يثير لديها مشاعر القلق والتهديد. ويرى **باتسون** أنّ الطفل يقع فريسة للمرض عندما يتعرّض التواصل بينه وبين والدته للتشويه أو التدمير، ويذهب إلى أنّ تحقيق التواصل بصورة صحية

هو من أهم وظائف **الأنا** سواء كان هذا التواصل بين الفرد والآخرين أو بين الفرد ونفسه. وعندما يفشل الأنا في القيام بهذه المهمة فإنّ الفرد يعجز عن فهم وسائل الآخرين، كما يعجز عن بث الرسائل المناسبة إليهم في المواقف المختلفة، بل إنّ الاتصال بين أفكار الفرد وأحاسيسه ومدركاته يضطرب أيضا.

وبالتالي، يمكن القول أنّ دور مدرسة بالو ألتو في النسق الأسري حوّل بؤرة العلاج من الفرد إلى التفاعل والعلاقات وأنماط الاتصال داخل الأسرة، كما قدّمت أدوات ونظريات لفهم كيف أنّ أعراض فرد ما، هي في الواقع صدى ودفاع عن نظام الأسرة غير المتوازن.

DJABALLAH